المقتبس

الجزء السابع من المجلد الثاني

رجب سنة ١٣٢٥ الموافق أغسطس (آب) سنة ١٩٠٧

صدور المشارقة والمغاربة

جبرائيل مونو (١)

كان ثلاثة من سراة الناس في السابع من تموز « يوليو » سنة ١٨٠٧ مجتمعين حول منصة سترت بنسيج الدمقس الاخضر في مدينة تيلسيت من اعمال بروسيا وقد تشحوا باثخر ما تقتضيه الكبرياء والفخفخة من الالبسة المذهبة ولقلدوا الاوسمة البراقة .

هؤلاء الرجال هم المسيو شارل دوتاليران وزير خارجية نابوليون الاول امبراطور

(١) معربة عن فصل من كتاب (المصنفون والمصنفات — حياة وكتابة) لاستاذنا شعيب بك من مفكري الشبان الساميين واحد اساتذة مدرسة الحقوق بالقسطنطينية وهو كتاب في تراجم مشاهير المتأخرين من صدور المغاربة مثل هيبوليت تن ومونو هذا وصديقه ارنست لافيس وغستاف فلوبر ونيبور ورانك ومومسن . وليس في التركية فيما أحسب كتاب انفع من هذا في الفلسفة الحاضرة والعلوم الاجتماعية وقد كتب المؤلف هذا الفصل في ١٦ ايلول « سبتمبر » سنه ١٣١٥ رومية معتمداً فيه على مؤلفات مونو نفسه وهي :

الالمان والفرنسويون Allemands et Français, 1 vol . مطالعات انتقادية على تاريخ أسرة المروفينجيين Etudes critiques sur les sources de l'histoire mérovinigienne

اساتذة التاريخ « Les maitres de l'histoire «Renan. Taine, Michelet » .

الصور والتذكارات Portraits et souvenirs . المجلة التاريخية Revue historique .

فرنسا والبرنس اسكندر كوراكين مستشار القيصر الخاص واحد اعضاء مجلس الشورى ومن اشراف الروس والبرنس لوبانوف الفريق في الجند الروسي .

دعي أولئك الثلاثة الى قاعة المذاكرات بواسطة موظف خاص حسب ما تقتضيه « قواعد التشريفات » التي يظن انها ابدية ليوقعوا على المعاهدة التي بدأت مادتها الاولى بهذه الجملة : « سيدوم السلام والوئام بين نابوليون بونابرت امبراطور فرنسا وملك ايطاليا وبين قيصر الروسيين اجمعين منذ اول يوم يتم فيه التصديق على هذه المعاهدة من الجانبين » فذهبت هذه المعاهدة ببروسيا والبروسيين الى اقصى دركات اليأس حتى كأنما كانت نذيرة بانقراضهم وتأذن سلطانهم او ان ذاك الوفاق الفرنسوي الروسي بناء يقام على انقاض حكومة هذه البلاد . . .

بينما كان مندوبو هاتين الدولتين المتحالفتين يجوبون الارض مسرعين ليبشروا الشعوب الاوربية باشراق افق السياسة عن ازمنة جديدة اذا باستاذ بروسي لا ينظر اليه امراء السياسة والحرب الا بعين الازدراء يفكر في اسباب فلسفية يسد بها ثلمات القنابل والمعاهدات التي خربت وطنه فاخذ يعقد المؤتمرات ويخاطب افراد قومه بان يرجع كل الى قوته ويعمد الى ادراع بأسه ويسعى في انهاض بلاده قدر طاقته .

هذا هو فيختي الذي اتخذه البروسيون استاذاً في جامعة برلين لما رأوا من ذلاقة لسانه وصدق بيانه وسداد جنانه . وكان فيختي يرجو في خطبه ان يرى شعوب الجرمان وحكوماته متحدة ليكون لها من اتحادها قوة . تلك الامة التي برهنت في حرب السبعين على انها عملت بنصائح فيختي كما ينبغي . للأمم المغلوبة ان تعمل بنصح رجالها اذا كانت الدعوة الى الاتحاد روح نصحهم .

***

مضى على معاهدة تيلسيت اربعة وستون عاماً ثم عادت تلك المنصة الاخضر غطاؤها واجتمع حولها في عاشر مايو سنة ١٨٧١ في مدينة فرانكفورت من اعمال المانيا ايضاً اربعة مندوبين كانت المفاوضات بينهم ذات صخب وهياج تارة ومزوجة باستهزاء مشئوم طوراً .

من المندوبين رجل قوي الحجة شديد البأس يدعى بسمارك وهو الرجل الذي لم يكن يعبأ ببراسم التشريفات ولا يهتم بما اعتادت السياسة ان تكنه في مثل هذه المواقف وكان اذا بحث امامه عن التقارير التي وضعتها السياسة في هذا الباب فك ازرار ملابسه وانشأ يستغرب في الضحك كثيراً قائلاً « ان هذه كلها اشبه بما ينشر في رفوف الصحف اليومية من الروايات فيبنا يحسب الانسان ان سيكون من وراء وقائعها حادث اذا به يسبح في خيال » ثم انه يبدد

رجليه بحذائهما العسكري و يطلب الجعة ليشرب في حضرة المسيو دارنيم الخرج الدمر من حرية بسمارك وامام المسيو دجولار الذي خجل من هذه الاعمال والمسيو جول فادر الماهل الحائر .

هذا هو بسمارك فلاح براندنبورج الذي انتهى الى رئاسة الوزارة الالمانية فاضطر المسيو جول فادر والمسيو جولار الى ان وقعوا على عهدة تقضي بانفصال ولايتين من ولايات الفرنسيس وادخالها في سخط البلاد الالمانية .

وهنا ذكر الفرنسيس — وقد اصبح كل شيء عندهم قرين الانحلال قريب الاضمحلال — ما كان من امر الاستاذ فيختي وتأثير خطبه في الدعوة الى الاتحاد ومواعظه الاجتماعية وراحوا يرون مداواة جرحي وطنهم بالادوية الفكرية وترياق الاخلاق على ماشاهدوا من همز الساسة وغمزهم واستخفافهم . ذلك لان رجال العلم كانوا على يقين من ان نصر الامبراطور غليوم المؤزر لم يكن من رصاص البنادق فقط بل ان تربية الالمان الفكرية عملت يومئذ مالم تعمله افواه المدافع . من اجل ذلك اخذ الفرنسيس يبحثون عن مذهب نافع في التربية يذهبون اليه لينهضوا بامتهم وبلادهم حتى تضارع بلاد جيرانهم .

وفي مقدمة من فادوا بانفسهم في سبيل سعادة فرنسا وسلامتها الموسيو جبرائيل مونو الذي رأى الناس من اعماله ما جعله اليق العلماء بهذه الوظيفة المقدسة .

***

تلقى جبرائيل العلم مع لافيس ورامبو ودوروي وفيدال دولابلانش واجستن فيلا في صف واحد من مدرسة دار المعلمين وكان يتطاول ببصره الى ما وراء الافق باحثاً عن مكان يلجأ اليه للتحقيق والتتبع ثم انجذب دفعة واحدة بما فطر عليه من الاستعداد نحو المانيا تلك الارض التي اجمع هو واصدقاؤه واساتذته على انها الوطن الثاني للذين يحبون ليفكروا ويدأبوا فكانت حجرة عمله في زقاق (اولم) ترتد دائماً اصداء نغمات وادي الب ووادي اردر

ولا غرابة اذا ذهبوا هذا المذهب في حين ان بلاد الالمان هي المسيطرة بتحقيقاتها العلمية على جميع الشبان العاملين الاذكياء الباحثين عن الحقيقة في تلك الديار وهي ملجأ المتخرجين في مدرسة دار المعلمين الفرنسوية من آراء الفلسفة القديمة .

يسير علم اللغات نحو التكمل والنشوء في بافيرا وسكسونيا وبومرانيا بجميع فروعه حتى اصبح افاضل فرنسا مدينين لكليات ليبسيك وبون وهايله وغوتنغن . وافى لارنست رنان ان يضع كتابه « حياة المسيح » لولا ابحاث استراوس في اصول اللغات وهذا غاستون بوفاسيه احد اعضاء المجمع العلمي الفرنسي يعترف بانه تلميذ مومسن المؤرخ الالماني وهؤلاء فوكار وجورج

برو وميكائيل بريال والبردومن قد بنوا مؤلفاتهم كلها على افكار علماء المانيا شاكرين وكذلك القنصليون في فرنسا قد ساروا وفي متدمتهم غاستون باري تحت لواء الاستاذ دبيز الشهير

مرت على المسيو مونو في دار الاستاذ وايج أمام كلية غوتنغن ليال حفل وطابها بافرائد الجمة وهنا كان يلقي الاستاذ على مونو وعشرة من رفاقه مباحث رائعة وخطابات ممتعة . في نقد التاريخ وفلسفته حتى قال مونو : « كانت هذه الدروس تبث في افكارنا انتظاماً ووضوحاً وكنا نخرج متلذذين بما نشعر به من حب العلم والحقيقة وابداء صفحة الوجوه لها » . كان وايج ذا فطرة ملكية تلائم عمله الواسع ولطالما كان يقول « ان تلاميذي هم اجود مصنفاتي وقد بذلت جهدي في تربية افكارهم اكثر من اجتهادي في التأليف واظنني نجحت . ذلك لان كتبي ستذهب بها الايام الى زوايا النسيان ولكن اسمي ستتلقاه العصور بعضها عن بعض ما دامت اعمال تلاميذي ومباحثهم العلمية باقية » .

فيمثل آراء هذا الأستاذ الفاضل تهذب الالمان واحسوا بوجوب الانتقام من الفرنسيس وبمثل هذا التهذيب تمثلت كوائن بسمارك وحركته السياسية .

وبينما كان جبرائيل مونو متطوعاً في خدمة جرحى حرب السبعين تحت قيادة المارشال ماكماهون والجنرال اورل بالادي الفرنسويين حدث ان صادف اكابر لغويي الجرمان في لباس افراد الجند البروسي فدهش لذلك ووقف امامهم ذاهلاً معجباً .

ما امحت امانى الفرنسيس في البراز الاخير من هذه الحرب المشؤومة حتى ذكر مونو — الذي كان يسعى بين جثث جرحى الحرب يائساً مضطرباً — انه مؤرخ واخذ يؤلف كتابه (الالمان والفرنسيس) ناقلاً فيه مشاهداته منذ بلغ مدينة (ركور) من اعمال اللورين الى ذهاب نابوليون الثالث وفي هذا الكتاب طبق مونو نظرياته الفلسفية التي كان يعلمها تلاميذه . وانك لتقرأ من خلال سطوره اسلوباً مشبعاً بالجد والتؤدة براء من كل طعن او تعريض دالاً على ان مونو من المؤرخين الذين يرون ان التصريح بالحقيقة كيفما كانت انفع الطرق واسلمها . من اجل ذلك كان الكتاب من اثمن ما كتبه المعاصرون عن هذه الحرب . وان اسباب غلب الفرنسيس يتمثل امام انظار القارىء في كل صفحة من صفحاته حتى كانت حرية وجدان المؤلف وصدق لهجته المعزز بالآراء العلمية . سبباً تحت أسلته على السن مدعي الوطنية الغارقين في لجج الخيال .

ومما فطر عليه المترجم به استيلاؤه على غايات التواضع فلا يريد ان يصفق له ولا أن يستحسن عمله مكتفياً بتسليم ما اهتم بجمعه من الخزائن الى فريق خاص غير طالب لقاء ذلك شهرة او سمعة وان المصغي الى مونو ليحار من اصوله المتينة وتبحره الواسع وتدريسه

القديم مع قلة استعمامه بالخطابيات . واذا وجد في المجالس التي ترجح التؤدة والسكون انصت حتى اذا سنحت له — والقوم في اثناء المناقشة والحوار — سانحة تلألأت بجبهته الفكرة وابرقت عيناه من وراء نظارتيه الذهبيتين وترك قلمه ومذكرته واخذ يلقي على السامعين ما يظهر له بمواطف شديدة ولسان مبين . وانك لترى الجهل واللهو والعيون الساهية تدانتبه كلها مغلوبة لما فتح امامها من اعماق مناظر الماضي الفسيح .

وبعد فان تأثيرات مؤرخنا الفاضل في التدريس لا تظهر كل الظهور من مؤلفاته لا من تعليمه في دار المعلمين ولا من كتاباته في المجلة التاريخية التي تولى ادارتها اكثر ايام حياته بل من محاوراته الخاصة مع تلاميذه ورفاقه في التحرير ومع اصدقائه وقد خاطبه صديقه ارنست لافيس في خطبة القاها يوم احتفال احدى الكليات قائلاً : (انك لتلقي بنفسك الى التهلكة لتخلص غيرك منها ولا تمنع نصائحك ومعونتك عن احد وانك لتسرع الى مكاتبة المشتغلين بالبحث عن الحقيقة وسلامة البشر مهما كانت نحلتهم وقوميتهم) .

ومن نتائج ابحاث مونو المثمرة في المانيا اجتهاده في تفهيم جميع تلاميذ المدارس معنى (التعاون والاتحاد) . وخلاصة الفكر الاساسي الذي يذهب اليه هو واصدقاؤه : (ان الفرنسيس مجتمعون لما نزل بساحتهم من البلايا كما ان الالمان اهل لما نالوه من النصر وما علينا الآن الاّ ان نسعى الى اقتطاف ثمرات هذا الدرس المفيد فانها نافعة لنا ولا تكون العصبات الاجتماعية وخيمة الاّ على اصحاب الغفلة والخمول .

ولقد عرفنا عملنا منذ الآن ونحن مضطرون لدفع جميع ما يتهدد جامعتنا والسلم العام من الحوادث . وان الغالبين قد اخذوا المقاطعتين من ارضنا والخمسة مليارات من اموالنا وما علينا الا ان نقتبس من فضائلهم لقاء ذلك)

وبعد فان من الابطال الذين القوا بانفسهم الى ساحة البراز في مسألة دريفوس الاجتماعية من اجل الحقيقة والعدل هو المسيو مونو ايضاً فانه اجتهد في هذا الدرس العام ان يعلم الانسان ان من واجباته ان يفادي بنفسه في نصرة الحق ولكنه لم يسلم بدفاعه هذا من تعريض المعرضين وسهام المستخفين اولئك الذين رأى ان ليس من اهانة لهم غير (السكوت) .

القسطنطينية محب الدين الخطيب